علاقة التفسير بعلوم العربية

د. السعيد بوخالفة ـ جامعة باتنة-

إن بين التفسير وعلوم العربية علاقة وثيقة، يعرفها كل من ألمّ بتاريخ القرآن وعرض لنشأة تلك العلوم. ومن الذائع أن الدراسات اللغوية والنحوية إنما نشأت خدمة للقرآن الكريم وصونا له، وتيسيرا للغته، وتوضيحا لمعانيه ونشرها في صفوف المسلمين، على اختلاف قدراتهم وتنوع مشاربهم ولهجاتهم.

على أنّ هذه العلاقة مرّت بأطوار مختلفة حددت سماتها وعمقها، وأهميتها في تاريخ التفسير.

لقد أخذ النبي ﷺ على عاتقه مهمة تفسير القرآن إلى جانب إقرائه وتعليمه، وبيان أحكامه، فكان يفسر لصحابته – رضوان الله عليهم- معاني بعض الآيات ويوفقهم على معاني ما استغلق من ألفاظها، وبين لهم أسباب النزول. ثم عهد إلى صحابته من بعده بهذه المهمة؛ يروون عنه هذه التفسيرات والأقوال والمناسبات. ثم أخذ التابعون هذه الأقوال، وتداولوها، ورووها شبه أحاديث، لأنه قرّ في وجدان معظمهم أن تفسير كلام الله لا يقلّ قدسية وشرعية عن حديث رسوله ﷺ، وانه لا يجوز فيه الاجتهاد.

وكان يغلب على هذه التفاسير الطابع اللغوي. فالرسول الكريم يبين بعض معاني الألفاظ الغريبة، إلى جانب شرح المعنى العام وبيان المناسبة.

روي[1] أن أعرابيا سأله عن معنى الظلم في قوله تعالى: ﴿**ولم يلبسوا إيمانهم بظلم**﴾ الأنعام: 82.

ففسره له بالشرك، واستشهد لذلك بقوله تعالى: ﴿**إن الشرك لظلم عظيم**﴾ لقمان:13

وإذا كان الرسول ﷺ قد فعل هذا، فإن معظم الصحابة قد تورعوا عن مثله، والتزموا أقوال الرسول وتفسيراته.

فقد روت الأخبار أن أبا بكر –رضي الله عنه- (ت 11 هـ) وعمر بن الخطاب –رضي الله عنه- (ت 23 هـ) تحرجا من التفسير، ورفضا الخوض فيه، فيما كان عبد الله بن عباس – رضي الله عنه- (ت 68 هـ) كان جريئا في ذلك، لما يتمتع به من موهبة لغوية متقدمة شهد له فيها عبد الله بن عمر –رضي الله عنه- (ت 73 هـ) وعدد من الصحابة، إذ كان يفسر كثيرا من غريب القرآن ويشرح معانيه، ويقرنه بأشعار الجاهليين، حتى عدّه كثير من الدارسين رائد المدرسة اللغوية في التفسير.

ومما ورد عنه: "إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب"[2].

على أن هذه المحاولات اللغوية لم تكن نسيجا وحدها، فقد أعقبتها محاولات أخرى، قام بها كوكبة من العلماء. ولعل أبرز تلك المحاولات ما نجده عند أبي عبيدة (ت 210 هـ) في كتابه مجاز القرآن إذ قرر معظم الدارسين أن هذا الكتاب في التفسير لأنه يقوم على المعرفة اللغوية أولا، وعلى دلالات الألفاظ القرآنية ومعاني الأشعار المشابهة لأسلوب القرآن وألفاظه.

وقد تلا كتاب المجاز هذا جهد أبي الحسن الأخفش (ت 211 هـ) في (معاني القرآن) وهو محاولة اغزر مادة وأكثر تطورا وعمقا من تجربة أبي عبيدة، فقد أفاد هذا من كتاب الأخير وطوره وزاد عليه معتمدا ألفاظ العربية وأساليبها وأشعارها.

وكانت أيضا محاولة القراءات (ت 207 هـ) وهي بحق أوضح المحاولات وأنضجها، لأنه استمد عناصرها من القرآن والحديث والروايات إضافة إلى مروياته الخاصة.

وقد ذكرت لنا المصادر أسماء عدد من العلماء الذين خاضوا في معاني القرآن وألفوا في هذه الحقبة من أمثال واصل بن عطا وأبي جعفر الرؤاسي. ولا يكاد يختلف تفسير الطبري (ت 310 هـ) الذي ألفه في القرن الثالث وكتاب الفرآء إلا في المسائل المتنية والأسانيد التي تصل التفسيرات بأصحابها، لأنه من المعروف أن الطبري قد نقل جهودا الفراء اللغوية والنحوية والأسلوبية، وترسم خطاه في التفسير والمعالجة، مثلما ترسم في التفسير الأثري طريقه يحي بن سلامه البصري الذي وضع في القرن الثاني تفسير للقرآن يقع في ثلاثين جزءا[3].

في هذه الجهود جميعا، تبدو العلاقة بين التفسير وعلوم العربية طبيعية جدا، إذ لا مجال لفصم هذه العلوم عن التفسير أو اعتبارها عنصرا دخيلا. كما أنه لا مجال لجعلها ركنا من أركان التفسير بالرأي، خلافا لبعض الباحثين الذين يرون في ابن عباس رائد التفسير بالرأي، لأنه استعان باللغة في كثير من تفسيراته، وفي أبي عبيدة وريثا لمذهبه في كتابه (المجاز) وفي الفراء والأخفش والطبري من يخلط التفسير المأثور بالتفسير بالرأي في مصنفاتهم[4].

إن العلاقة بين القرآن وتفسيره اللغوي والمعنوي،حميمة لا يمكن فض اشتباكها، فالقرآن نزل بلسان عربي مبين، ومن تصدى لتفسيره عربي صريح أو عالم فصيح، والناس متفاوتون في قدراتهم العقلية واللغوية والمعرفية، يحتاجون إلى تقريب البعيد وتوضيح الغامض، والشقة ابتعدت بعهد الرسول ﷺ وبمهده ولم يكن من سبيل إلى التفسير إلا بالتقريب والموازنة والمقارنة بالأساليب اللغوية الأخرى.

فلا نعتقد أن ابن عباس قد قال برأيه عندما فسر بعض المفردات الغريبة بالشعر، وأن أبا عبيدة و الفراء والأخفش ومن لف لفهم قد قالوا برأيهم عندما فسروا معاني القرآن وإن أهملوا ذكر أسانيدهم، لأنهم كانوا حريصين كل الحرص على ربط التفسير اللغوي والأسلوبي بالمأثور عن رسول الله ﷺ وصحابته.

ففي كتبهم إشارات غنية وعبارات مطولة توضح مدى التزامهم بهذا الأمر وتقيدهم به، وتعبر عن إيمانهم العميق بمراميه واتجاهاته.

والطبري لم يخرج عن هذه الحقيقة لأنه ورث جهود الفراء جميعا ورصد أسانيد التفسير بدقة عجيبة، أرسى في كتابه (جامع البيان) أصول التفسير بالمأثور، رغم كثير من معالجاته اللغوية والنحوية و الأسلوبية.

إن مصطلح التفسير بالرأي كبير على جهودات عباس، وعلى غيره ممن سلك سبيله وطوره، وما يمكن قوله أن هؤلاء جميعا قد اجتهدوا في ظل لغة القرآن وأفياء الشريعة، وأوضحوا ما سكتت عنه الروايات والأسانيد المعزوة أسوة بالاجتهادات الأخرى الملتزمة، فكان التفسير وعلوم العربية في جهودهم حقيقة واحدة لا يمكن فصلها.

وثمة مسألة في غاية من الأهمية يمكن الاعتماد عليها في توضيح هذه الحقيقة ألا وهي أن علم العربية أو ظواهره أقدم من التفسير، وأن هذا العلم، بكل أبعاده، كان أداة التفسير وغايته في وقت واحد.

إذ لا يعقل أن يطفو فجأة علم تام الأركان عندما تدعو حاجة ملحة، فهناك ظواهر متعددة، وملاحظات قديمة متفرقة تصل إلى ما قبل الإسلام وبداياته، يمكن القول: أنها انتظمت وتوهجت عندما دعت الحاجة إليها، فقبل رحيل العلماء إلى البوادي لجمع اللغة، كان هناك شيء من المعرفة بأصول هذه اللغة، وكانت هناك معرفة بلغة العرب ولهجتها، وتذوق لمعانيها ومواطن جمالها، ولولا هذه الظواهر ما نهضت علوم العربية هذا النهوض الشامخ.

ويعضد ذلك ما ترويه كتب الأخبار و التفسير، من معرفة عدد من الصحابة والتابعين و المفسرين الأوائل لبعض أصول العربية معرفة ظاهرة.

فقد روي عن النبي ﷺ وأصحابه وابن عباس وأبي مالك وسعيد بن المسيب (ت 94 هـ)، والحسن البصري (ت 110)، وقتادة (ت 117 هـ) وابن جريج (ت 150 هـ) تفسيرات[5] لآيات من القرآن الكريم تنبيء عن إدراك سليم لمعاني القرآن وأسراره، وتفتح في معرفة جوانبه النحوية والأسلوبية، وبعض المصطلحات النحوية.

وفي هذا دلالة على قدم هذا العلم وتوغله ورسوخه، وهذه الجهود تتقدم جميعا ثمرة سيبويه (ت 180هـ) في (الكتاب) وترتد إلى القرن الأول ومطلع الثاني كما أسلفنا.

وتتوال الأحداث، وتتعاظم الأمة، وينشأ وضع جديد تتطور فيه علاقة التفسير، بعلوم العربية مع تطور الأمة وتقدمها، وتشتد الحاجة إلى التفسير، وذلك انطلاقا من عوامل متعددة، لعل أبرزها زيادة عدد المسلمين، وتوزعهم في البلاد الإسلامية المترامية الأطراف، وبعد الشقة بين الرسول ﷺ وصحابته واندلاع نار الفتنة في صفوف المسلمين، وانقسامهم إلى شيع وأحزاب، وعودتهم إلى القرآن لالتماس الأدلة والبراهين.

هذه العوامل مجتمعة يمكن لها أن تفسر لنا ظهور العلوم العقلية. والحاجة إلى التزود بالثقافات الأجنبية والتسلح بالفلسفة وعلم الجدل، وظهور ما يسمى بالتفسير بالرأي.

كان التفسير بالرأي ثمرة من ثمار العلوم العقلية، وقد تنوعت كتب هذا اللون من التفسير، وسارت في اتجاهات مختلفة، توافق في مضمونها واستنتاجاتها العقائد المذهبية، والاختلافات الحزبية فبدت فيها أفكار التشيّع والاعتزال والتصوف، وظهرت فيها آثار النحل والأهواء، وأخذ كل مفسر يخضع النص لنظراته ونوازعه، ويعيث فيه تأويلا وتقديرا، بما ينسجم مع تلك النوازع.

وكان من الطبيعي أن يستعن هذا أو ذاك منهم بعلوم العربية، من نحو وصرف وبلاغة في تفسيره مثلما يستعين بأقوال الحكماء والفلاسفة، أو بالأخبار والأحاديث النبوية، حتى غدت الاستعانة بعلوم اللسان أهم ما يوجه التفسير.

لقد غدا التفسير علما، له أصول وأدوات ورجال بعد أن كان حديثا ورواية، وأصبح معظمه غايات ومذاهب، بعد أن كان لمعرفة الأحكام وأسرار الإعجاز، وأصبحت علوم العربية فيه أدواتا ودلائل، بعد أن كانت شكلا له ومادة، ومما ساعد على ذلك نضج هذه العلوم، واستقرار اغلب أصولها، وبروز أهميتها في عدد من الحقول الثقافية والشرعية، فنحن قل أن نجد مفسرا، أيا كان مذهبه، لا يستعين بعلوم العربية في بيان معاني التنزيل، كما قل أن نجد تفسيرا تخلو مقدمته من بيان أهمية هذه العلوم وضرورة إتقان المفسر لها.

قال أبو حيان: (ت 745 هـ) " فلنذكر ما يحتاج إليه علم التفسير من العلوم....."

فنقول: النظر في كتاب الله تعالى يكون من وجوه:

الوجه الأول: علم اللغة اسما، فعلا، حرفا.....

الوجه الثاني: معرفة الأحكام التي للكلم العربية من جهة إفرادها ومن جهة تركيبها، وتؤخذ ذلك من علم النحو[6].

لقد غدت علوم العربية ركنا من أركان التفسير، بل ركنا جوهريا، لا يقل أهمية عن شرط موافقة القراءة القرآنية لوجه من وجوه العربية. فإذا كان هذا شكل التفسير فيما مضى، فهو الآن عنصر ضابط يسهم في جلاء معالم القرآن اللغوية والأساليب الشرعية والمذهبية.

ولكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فقد تطاولت أهمية هذه العلوم لدى كثير من المفسرين، بل غدت شغلهم الشاغل في التفسير فأطلقوا يدها، وجعلوها مدخلا أساسيا إليه وعصا سحرية فيه، وذلك انطلاقا من معرفة كبيرة بأصولها وفروعها، وولع شديد بأسرارها، فحشروا في تفاسيرهم معظم معارفهم النحوية والبلاغية واللغوية، وأقحموا كثيرا من مصطلحاتها، واخضعوا نصوص القرآن وقراءاته لها، وجعلوها مجالا رحبا للتطبيق، حتى إن كثيرا منهم منح الجانب النحوي أهمية خاصة، وجعل يعرب القرآن سورة سورة وآية آية، وكلمة كلمة، مدفوعا إلى ذلك بغاية التفسير، تقربا من الله تعالى، وخدمة لكتابه.

لقد تعددت الكتب التي سارت في هذا الاتجاه وتنوعت،فكان منها ما يخص بالجوانب النحوية والصرفية واللغوية، كالبحر المحيط، ومنها ما هو مهتم بالجانب البلاغي

من معان وبيان كالكشاف الذي يرى صاحبه أنه من دون علمي البيان والمعاني لا يمكن للمفسر أن يتصدى لكتاب الله، قال: "إن أملا العلوم، بما يغمر القرائح، وأنهضها بما يبهر الألباب القوارح من غرائب نكت بلطف مسلكها، ومستودعات أسرار يدق سلكها، علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه وإجالة النظر فيه كل ذي علم.... فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى و الأحكام، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص والأخبار وإن كان من ابن القرية أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري أوعظ، والنحوي وإن كان انحى من سيبوبه واللغوي وان علك اللغات بقوة لحييه، لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ولا يغوص على شيئ من تلك الحقائق، إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان وتمهل في ارتيادهما آونة، وتعب في التنقير عنهما أزمنته[7].

لاشك إذن في أن علاقة التفسير بعلوم العربية قد اتسمت بالتطور والتبدل، ولم تكن نمطية ذات منحى واحد كما يجب أن يراها بعض الدارسين، وهي أن هذه العلوم قد نشأت في ظلال القرآن والتفسير وظلت أداة له وخادمة، من دون أن يلاحظوا تطور هذه العلاقة، ويمعنوا النظر في تاريخها.

لقد بدأت علاقة علوم العربية بالتفسير هينة يسيرة، فكانت أداته ومادته في وقت معا ثم أصبحت منه ركنا بعد أن استقرت معالمه وأصوله، ثم غدت مدخلا جوهريا عند كثير منهم، وغاية لدى المعربين منهم خاصة، ونحن لا نعني تطورا تاريخيا حتميا، إذ لا يمنع أن تتداخل المراحل بتداخل جهود المفسرين، وتتفاوت مستوياتها، ولكنه الإطار العام والتطور المنطقي الذي يفصح عنه تاريخ التفسير.

المصادر والمراجع

1 ـ صحيح البخاري مطابع الشعب 1378 هـ.

2 ـ غاية النهاية لابن الجزري، تحقيق برجستراس مطبعة الخانجي القاهرة .1932

3 ـ التفسير ورجاله محمد الطاهر بن عاشور ط 2 دار الكتب الشرقية تونس .1972

4 ـ مناهج في التفسير الجويني مصطفى، دار الكتب للطباعة مصر د. ت.

5 ـ تفسير الطبري جامع البيان في تأويل القرآن ط 2، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة 1954م.

6 ـ تفسير الكشاف للزمخشري، دار الكتاب العربي بيروت 1947م.

7 ـ تفسير الرازي مفاتح الغيب، دار إحياء التراث العربي بيروت، د، ت.

8 ـ تفسير القرطبي الجامع للأحكام القرآن ط 3 دار الكتاب العربي القاهرة 1967م.

9 ـ تفسير البحر المحيط،لأبي حيان مكتبة النشر الحديثة الرياض.

10 ـ تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل ـ المكتبة الأميرية دمشق، بيروت د، ت.

الهوامش:

[1] ـ صحيح البخاري، ج6 / ص71، كتاب التفسير.
[2] ـ غاية النهاية، 246/1.
[3] التفسير ورجاله 41 ـ 43
[4] ـ مناهج في التفسير 79 ـ 80
[5] ـ انظر: الطبري 106/10، 30/9 ،137/7 ، 13 ،452، 448/1
[6] ـ البحر المحيط 5/1،6.
[7] ـ الكشاف ص ت من الجزء الأول.